انعكاسات الاحتلال الغربي على المواطَنة الإفريقية: دراسة في الآثار والأبعاد

عبد الرحمن إبراهيم كان
باحث سنغالي متخصص في القانون المقارن
وكاتب في الشؤون الإفريقية

من المعلوم أنّ الانتساب إلى بقعةٍ جغرافيّةٍ معيّنة ضرورةٌ اجتماعية وسياسية، ويأتي هذا الانتماء في الغالب من أساسٍ فطريٍّ ووراثيّ، ولكن تغيّر الحال بعد أن تمّ إحداث الحدود الإقليمية للأوطان في القرن التاسع عشر، وتلا ذلك نظام الجنسيّات بالمنظور الإداريّ للحكم السّياسي، وهذا التغيّر الجذريّ لطبيعة الأوطان أتى نتاجاً للاحتلال الغربيّ الغاشم للبلدان، ولم تكن القارة

الإفريقيـة خارجةً عن تلـك البلاد التي عانت من هذا الاحتلال على كلّ الأصعدة.

واشـتدّت معانـاة الأفارقـة، وتضـاعفت بأشـكالها المتعدّدة، ويتمثّل رأس المعاناة في التشكّل المزدوج للإنسـان الإفريقـي إزاء المواطَنة؛ من حيث الصـدق في الانتماء والتكيُّف في الانتساب، ولذلك كان لابدّ من مراجعة قراءة «المواطَنة الإفريقية»، والتي يُعنى بها ارتباط الأفارقة بأوطانهم ولاءً وخدمةً.

وتتميّز «الوطنيّة» بكونها قيمة إنسانية تعارف عليها الناس، وتعود لعصورٍ مختلفة، إذ تطـرّق إليها الإغريقيون في كتاباتهم، ويعـود تاريخهـا إلـى زمـن الديمقراطيـة[١]؛ حيث يرجـع أصل استعمال مفهوم المواطَنة فـي الحضارتَيْن اليونانية والرومانية، فقـد استُعملـت لفظـة (المواطـن) و(المواطَنـة) فـي هاتَيْـن الحضارتَيْـن لتحديد الوضع القانونـي والسياسي للفرد اليوناني والروماني.

وكانـت الديمقراطيـة اليونانية القديمة مبنيـةً على أساس أنّ المدينـة تُحكم من أجـل الأكثرية، والحرية هـي مبدأ الحياة العامّة، وكانـت الحكومة اليونانية في طابعها دولةً مدنيّة، وكانت الروابط بيـن المواطنين وثيقةً جدّاً، وكانت تجمعهم لغةٌ واحدة، ودِينٌ عامّ، كلُّ هذا أدى إلى أن يكون ولاءُ المواطن اليوناني لدولة المدنيـة؛ وليس لعائلته أو لعشيرتـه أو لبلدته[٢]، ومع ذلك؛ كانت الفلسفة اليونانية ترى المواطَنة- بالمنظور الفلسفي- عبارةً عن حـقٍّ للمشاركة السياسية؛ بشرط أن يكون المتمتّع بهذا الحقّ من ذوي الثروة الماليّة[٣].

المواطَنة الإفريقية لم تصل بعد إلى مداها، وذلك لتأثّر جلّ الأفارقة بثقافة المُستعمِر، وبخاصّةٍ الذين يقيمون في الغرب الإفريقي الفرنسيّ

وفي هذه الحِقبة مـن الزمن كانت المواطَنة تجسّد الكفاءة أو القـدرة علـى الحكـم، كما علّـق الفيلسوف أرسطـو على ذلك قائـلاً: إنّ المواطـن: «هـو الـذي لديـه حصـةٌ مـن الامتيازات والحصانات في السلطة»[٤].

ومـع اختـلاف الكاتب مع جزئيـات تلك النظريّـات؛ إلا أنّ فكـرة الولاء للوطـن أمرٌ طبيعيّ عنـد الأفـراد، ويُقصد بتعزيزه وتنظيمه تجسيدُ وحدة الأُمّة ودعم عمارة الأرض.

هـذا، وإنّ الوطنيّـة والمواطَنـة رابطةٌ تعبّر عـن ولاء المرء لبلـده[٥]، ومع ذلك فـإنّ المواطَنـة الإفريقية لم تصـل بعد إلى مداهـا، وذلك لتأثّر جـلّ الأفارقة بثقافـة المُستعمِـر، وبخاصّةٍ الذين يقيمون في الغرب الإفريقي الفرنسيّ[٦].

وإلـى جانـب ذلـك؛ فـإنّ المتابع للتطـوّرات فـي إفريقيا- عموماً- يدرك مدى تجذّر التأثير العميق لسياسات الاحتلال في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وبقيت انعكاسات

---

(١) الديمقراطية سياسيّاً: إحدى صور الحكم التي تكون فيها السيادة للشعب. والديمقراطية اجتماعيّاً: أسلوبٌ في الحياة يقوم على أساس المساواة والحرية في الرأي والتفكير. انظر: مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مادة: ديمقراطية، القاهرة- دار المعارف.

(٢) د. ياسر حسن عبد التواب جابر، المواطَنة في الشريعة الإسلامية: دراسة فقهية، ط١، القاهرة، دار المحدثين للبحث العلمي والترجمة والنشر، ٢٠١٠م، ص٢٤.

(٣) Gardner, J. P., ed. Citizenship: the white paper. British Institute of International and Comparative Law and the Institute for Citizenship Studies, 1997. Page 251.

(٤) who has a share in the privileges of" rule". Aristotle (1962, p.112) quoted in (Turner (1986,p.14.

(٥) السيد ياسين، المواطَنة في زمن العولمة، ص٢٢.

(٦) غـرب إفريقيا الفرنسي بالفرنسية: Afrique occidentale française هو اتحادية مكونة من ثماني مناطق فرنسية استعمارية، وهي: موريتانيا، السنغال، السودان الفرنسي (مالي حاليّاً)، غينيا الفرنسية، ساحل العاج، فولتا العليا (بوركينا فاسو حاليّاً)، داهومي (بنين حاليّاً)، النيجر. انظر: ويكيبيديا.

الاحتـلال الغربـيّ عائقـةً للمواطَنـة الإفريقية، حيث قلّلـت آثارُ الاحتلال مشاعرَ الحـبّ والارتباط بالوطن عند الأفارقة، وانبثق عنهـا ضعف الاستجابة في تقديم الجهـود ورسم الخطط ووضع الموازنـات العلميّـة والعمليّـة لتطوير القـارة؛ وأدّى كلّ ذلك إلى عدم ارتيـاح الإنسان الإفريقـي غالباً للبقاء فـي وطنه، كما نتج عنـه تزايد الهجرة غير الشرعية، وضعـف المشاركة السياسية، وقلّة الأداء الاجتماعي، ومـوت روح الانتماء، ومشكلة الازدواجية في الهُوِيّة.

إرث الاحتلال وأثره في تكوين الدولة الحديثة:

الاستعمـار عبارةٌ عن الهيمنة المباشـرة لدولة أجنبية على سلطة دولـة أخرى، وأساسه الاحتلال، كما احتلّت بريطانيا دولة نيجيريـا من سنـة ١٩٠٠م- ١٩٦٠م؛ بهدف الهيمنـة السياسية، والقيام باستغلال خيرات الوطن النيجيري.

وحيـن نتحدّث عـن الاستعمـار فـي إفريقيا؛ فإننـا نتناول الوقائـع الأليمة منذ سنة ١٨٠٠م- حتى ١٩٦٠م[١]، حيث هيمنت الـدول الغربية على الدول الإفريقيـة، وتحكّمت في اقتصاداتها، ونهبـت ثرواتهـا. عـلاوةً على ذلـك؛ كانـت حاجتها كبيـرةً إلى السيطرة الكاملة على إفريقيا وإدارتها، واعتبارها دولاً مستهلكة، وتكون أوروبا هي القارة الرائدة في الثورة الصناعية.

استخدمت دول الاحتلال (المُستعمِرون) عدداً من الأساليب والاستراتيجيـات لإجبار الأفارقة على الخضوع للاحتلال والإدارة الاستعماريـة، مـن بينهـا الغـزو، والعمـل القسـريّ، والضرائب، وتسييـل الاقتصاد، ودفع الأجـور المنخفضة[٢]، هـذا من ناحية. ومـن ناحيـة أخـرى؛ قدّمت جهدهـا المضنـي في برمجـة العقل الإفريقي، وذلـك باستيراد نُظُم سياسية ومناهـجَ تعليميّة وأُسس اجتماعية للأفارقة؛ كي تكون عائقةً لإفريقيا عن النهضة والتطوّر.

وقد خلّف هذا الاحتلال إرثـاً سيّئاً، وبهذا الإرث تكوّنت الدّول الإفريقية الحديثة وصِيغت بأسلوبٍ غربيّ لا يناسب الوضع الإفريقي على العموم، ولا تزال إفريقيا تعيش هذه الويلات إلى يومنا هذا.

ومن المثيـر للاهتمام أن نلاحظ: كيـف استطاعت الخطّة الغربيّة خلط الهُوِيّة الإفريقيـة، وزعزعة وطنيّة الشعوب، عندما جمعت أنواعـاً متعددة من المواطنين داخل دولة واحدة، ووزعت مواطنيـن على عـدة دول- كما حـدث للصوماليّيـن-، ووضعت أحكامـاً وقوانيـن إدارية تُطبّق على قـوم دون آخرين على أساس التجنيـس، وهـذا بـلا شـكّ أدّى إلـى تضييـع الحقـوق وانتشار الظلـم وضيـاع الهُوِيّـة والثقافة، حيـث كـوّن الإرث الاستعماريّ دولاً إفريقيّة تستنـد في قوانينها ودساتيرهـا ونُظُمها السياسية ومناهجها التعليمية إلى ما عند الغرب.

وتجـذّرت المخلّفات الاستعمارية بـكلّ أنواعها في إفريقيا، وأنتجـت في الأخير عقـولاً إفريقيّة لا تعلم عـن الهُوِيّة الصادقة إلا حروفهـا، ولا من المواطَنة إلا اسمهـا ورسمها. وهذا التكوين السلبـيّ للدولـة الإفريقية وللإنسـان الإفريقـي أدّى إلى تسهيل السّبل للاحتلال في تفريغ روح المواطَنة عند الأفارقة، وأنساهم أنفسهـم، وأغفلهـم عـن إعـادة التكوين وفـق الهُوِيّـة الإفريقية المساعدة على تنمية البيئة وعمارتها بأسلوبٍ تعاونيّ.

وسائل الاحتلال في تفريغ روح المواطَنة عند الأفارقة:

دلّت الأحـداث التاريخية قبل الاستقـلال، أثناء الاستعمار فـي إفريقيـا، علـى نفـوذ مبـدأ المواطَنة فـي نفوس الأفارقة، وهـذه المواطَنة ظهـرت في أبهى تطبيقاتها وقـت مجابهة بعض الحـركات الجهاديّة[٣] لوجود الاحتلال، وتبع ذلك عدّة مقاومات مـن قِبَل رجـال الدّين، وهـم بذلـك أرادوا التحـرُّر والاستقلال والتمسُّك بوطنهم حُكماً وإدارة؛ إلا أنّ قوات الاحتلال استطاعت

(١) Stephen Ocheni, Basil C. Nwankwo (2012). Analysis of Colonialismand Its Impact in Africa. Cross-Cultural Communication,8 (3), 46-54.

(٢) Stephen Ocheni, Basil C. Nwankwo (2012). Analysis of Colonialismand Its Impact in Africa. Cross-Cultural Communication,8 (3), 46-54.

(٣) أمثال حركة الشيخ عمر الفوتي تال التكروري السنغاليّ (ت١٨٦٤م)، شارك في الحروب المقدسة مع الخليفة محمد بلو بن عثمان دان فوديو، ثم عاد إلى وطنه الأصلي في فوتا تورو، واستقر في دنجراي.
- وقـد كـان الجهاد الإسـلامي ضد الاستعمار- في تلك الفترة- يمثّل الهوية الإسلامية لإفريقيا، والمواطَنة الحقّة، انتماءً وولاءً وتضحيةً، تمثل ذلك في عدد من الحركات الجهادية آنـذاك، ومنها: حركة السلطان محمود عثمان سلطان ميدجورتين في الصومال، والسيد محمد عبدالله حسن، والحركة الفودية في نيجيريا، ورابح بن فضل الله بن الزبير في منطقة بحيرة تشاد، والحاج محمد الأمين في منطقة سانجامبيا، وساموري توري في بلاد المانديغو.

تمرير نفوذها التشريعي والقانوني عبر أجندتها الخاصّة، وبذلك استطاعوا فرض قوانينهم على الشعوب الإفريقية، وسلكوا وسائل عدّة في تفريغ روح المواطَنة عند الأفارقة، **ومن بين تلك الوسائل:**

الوسائل التعليمية: استعانت دول الاحتلال بالتعليم في زرع خططها، كي تتمكن في الشعوب الإفريقية تمكُّناً يساعدها على استخدامهم في مصالحها الخاصّة.

وعادةً ما يُزعم وجود إيجابية للاستعمار في هذا المجال، وهي أنه جلب التعليم الغربي ومن ثَمَّ الحضارة الغربيّة إلى شواطئ إفريقيا؛ ما يعني- ضمناً- أنّ مساهمة الاستعمار كانت إيجابيةً في التنمية الإفريقية! وهذا القول تضليلٌ، ومخالفٌ للواقع.

ويُستحسن النظر بحياديّةٍ في استخدامهم التعليم وسيلةً لتفريغ روح المواطَنة عند الأفارقة؛ لأنّ هذه الوسيلة لم تكن تصيب هدفها لولا خذلانُ الأفارقة لأنفسهم بقبولها، زيادةً على تمجيدها وتفضيلها على التعليم المحليّ من غير موازنةٍ بين الصالح منه والطالح.

هذا، وقد شوّه المُستعمِر تاريخ إفريقيا في المقررات الدراسية التي وضعها، وخذلت القيادة الإفريقية نفسها في عدم مجابهتها لهذا الخطر، الأمر الذي يجعل الطالب الإفريقي لا يولي اهتماماً لتاريخه؛ في الوقت الذي يبجل فيه تاريخ غيره، وينتهي به المطاف إلى عدم فخره بوطنه، فأدى به ذلك إلى الانمساخ وضياع الهُويّة.

ويرى «ستفين» أنّ التعليم الغربيّ لم يكن متجذّراً في الثقافة الإفريقية، وبالتالي لم يكن قادراً على تعزيز أيّ تنمية ذات مغزى داخل البيئة الإفريقية[١]، حتى إنْ سلّمنا له بهذا الرأي- بزعمه صواباً- فإنه تجاهل إرث الاحتلال التعليميّ، الذي لم يكن مقتصراً فقط على سنوات الاحتلال، بل امتدّ إلى ما بعد الاستقلال، وإلى يومنا هذا، وأقرب مثال لذلك كون بعض الدّول الإفريقية لا تزال تعتمد اللغة الإنجليزية أو الفرنسية لغةً رسميّةً لها في إدارات الدولة وفي المدارس والجامعات، هذا يعني أنّ الأفارقة يتحمّلون مسؤولية هذه المأساة. وفي المقابل؛ فإنّه عبارة عن تأكيد للدَّور الخبيث الذي مارسته دول الاحتلال جرياً وراء مصالحها، ومحاصرتها للسلطات الإفريقية اقتصاديّاً إزاء أية حركة تمثّل الانعتاق من نير الاحتلال العصريّ.

الوسائل الثقافية: تُعَدُّ الثقافة عنصراً مهمّاً في حياة الإنسان؛ لأنها عبارة عن السلوكيات والأفكار التي تحدّد شخصيّة الإنسان، وعليه؛ كانت اللغة هي الوسيلة الكبرى في ترجمة الثقافات وأفكار البشر، وهذا ما أدركه المُستعمِر، فسعى بكامل خططه للتأثير في الثقافة الإفريقية؛ بتقديمهم للثقافة الغربيّة بوصفها مفتاحاً للحضارة الإنسانيّة، فمثلاً: سادت في كتابات الكتّاب الفرنسيّين اعتبارهم الذاكرة التي تتشكل لدى المُستعمَر الملتحق بمدرسة المُستعمِر- هي بلا شكّ- ليست نفس ذاكرة الشّعب العادي[٢].

وكانت اللغة الفرنسية، في ذلك الماضي القريب، لغةَ القيم الاستعمارية والعنصرية، وكان ترويجها على أنها لغة حضارة يدخل في خطة «تصفية عِرْقية»[٣].

هكذا كان الحال، ولكن في حدود العلم والإنصاف؛ يبقى ترويج اللغة أداةً في تشكيل التواصل الاجتماعيّ بين الشعوب، إلّا أنّ النقد هنا للحركة الفرنسية الاستعمارية أنها في تناولها للموضوع تجاوزت حدود المعقول، فصوّروا ثقافتهم عبر هذه اللغة بوصفها الأفضل، واستعملوا الأساليب القسرية في فرضها على الكثير من المجتمعات الإفريقية، في حين أنّ دول الاحتلال الأخرى لم تكن متعمّقةً في هذا الجانب الثقافيّ أكثر من تركيزها على نهب الثروة.

وكبقية البشر؛ يمثّل التراث الشعبي الإفريقي والدّين مجموعةً متنوعةً من الجوانب الاجتماعية للثقافات المختلفة في إفريقيا[٤]، وقد تعرّض هذا التراث للغزو الفكريّ والثقافيّ من المُستعمِر عبر وسائل الثقافة المتنوّعة، وتحوّل الكثير من الأفارقة بذلك إلى أناسٍ فارغين عن الشعور بالوطنية والانتماء، فمثلاً؛ ارتأى المُستعمِر أن يفرض على المدارس الإفريقية لغته وثقافته لتحدث هوّة بعيدة بين الشعب الإفريقي ولغته الأمّ،

(١) Stephen Ocheni, Basil C. Nwankwo (2012). Analysis of Colonialismand Its Impact in Africa. Cross-Cultural Communication,8 (3), 46-54.

(٢) الإرث الاستعماريّ للفرانكفونية، عبد القادر خرفوش، ترجمه من الفرنسية: مصطفى عبد الوهّاب. https://www.noonpost.org/content/12623

(٣) الإرث الاستعماريّ للفرانكفونيّة، مرجع سابق.

(٤) ثقافة إفريقيا، موسوعة ويكيبيديا.

الأمـر الذي جعل المثقّـف الإفريقي يتّحد مع اللغـة الغربيّة، وما تحملـه من أدب وتراث وفكر وثقافة وفلسفات، ويستهلكها ويدافع عنهـا بأكثر مما يدافع عـن لغته الأمّ! حتّى يُقـال مثل ذلك حين لا يهتمّ الإفريقي بالتـوازن بين أصالة هُويّته المرتبطة بلغته الأمّ والمبالغـة في تجـاوز حدود الانتفاع باللّغـة العربيّة (لغة الدّين) علـى حسـاب لغتـه، وهي اللغـة التي يستطيـع بها خدمـة الدّين والوطـن بشكلٍ أوسـع؛ وذلك لقلّة مَن يجيـد اللغات الأجنبية من عشيرته وقومه.

ولهـذه الظاهـرة أثرهـا فـي بُعـد الشعـب عـن المواطَنة، واغترابـه عن لغتـه وثقافته وتراثـه؛ بحيث إنّه لا يـكاد يفكّر في أولويّة لغته الأمّ ووطنه الأصليّ.

بالإضافـة إلـى ذلـك؛ فـإنّ المُستعمِر لم يتوقّـف عند هذا الحدّ؛ بل حاول أن يستحوذ على المقررات الدراسية، ويرسّخ من خلالها بعض أفـكاره، ويعبث بأفكار الأفارقة تجاهلاً أو تحريفاً، بـدَا ذلك واضحاً فـي نجـاح المُستعمِر في شحن عقـل الإنسان الإفريقي بثقافته، فأصبـح مُعظِّماً للعقل الغربيّ ومُقدِّساً للتراث الأوروبيّ.

المواطَنة الإفريقية.. وازدواجية الهوية:

كان استعمار إفريقيا مـن قِبَل البلدان الأوروبيّة حدثاً بارزاً فـي شـأن إفريقيا، ويَعـدّ الأفارقـة تأثير الاحتـلال فيهم عاملاً فـي فَهْم الوضـع الحالي للقارة والشعـوب الإفريقية؛ ولذلك فإنّ التدقيـق في ظاهرة الاستعمار (الاحتـلال) أمرٌ ضروري لتقدير درجـة تأثيره، ليس فقط فـي المجالات الاقتصاديـة والسياسية لإفريقيـا، ولكـن أيضـاً فـي وطنيـة الشعـب الإفريقـي، ومـدى محافظته على حماية المواطَنة الإفريقية استشعاراً وممارسةً.

وقـد سعـت الـدّول الغربيّـة المُستعمِـرة جاهدةً إلـى سلخ روح الوطنيّـة مـن المواطنين الأفارقة، ووضعـت لذلك سياسات استدراجيّة لجعلهم هواة وموالين لدولهم، متّبعةً في ذلك أسلوب «فَرْنَسَـة» أو «أَنجلَزَة» الأفارقة، **وهـذه العملية، المتمثّلة في خلـق فرنسـيّين أو إنجليزيّيـن أو برتغاليّيـن جُـدُد مـن الأفارقة، كانت تدور حول محورَيْن مختلفَيْن**[1]:

المحـور الأول: يتعلّـق بالشّـروع فـي توفيـر الجنسيّـة للأفارقـة، ووضعـوا لذلك آليـات خاصّة، وأقرب مثـال لذلك ما قامـت به فرنسا- قبل الاستقلال- مـن تحديد مناطق خاصّة[2] فـي السّنغال بوصفهـا أراضي فرنسيّة خـارج الإقليم الجغرافيّ لفرنسا، ومَن يُولد فيها يتمتّع بشكلٍ حصريّ بالجنسيّة الفرنسيّة.

وهكـذا استجاب أكثر الأفارقة للإغـراءات القانونيّة للدّول الغربيـة وقـت الاحتلال، ولا تـزال تبعات ذلك ظاهـرةً في إدارة السّياسة وسياسة الإدارة في الدّول الإفريقية.

وأمّـا المحـور الثّانـي: فيتضمّـن الانتمـاء إلـى النّظام التعليمي للدّول المُستعمِرة، من الابتدائية إلى الكليّات الكبرى في الجامعات الغربيّة، يشمل ذلك امتحانات تنافسيّة كبيرة[3]، وهي الامتحانات التـي تحدّد مدى التعمّق والاستيعاب للنظام الغربيّ، وتقيّم مستوى الاندماج سعياً لتأصيل التشكُّل الغربيّ.

ومـن هنا؛ بدأت المواطَنـة الإفريقية في الاختفاء من حيث فاعليّتهـا، ونجح الاحتـلال الغربيّ في اختـراق الهُويّة الإفريقية والعمل على استئصالها مـن جذورها، وأصبح الإنسان الإفريقي يعيش بهُويّة مزدوجة.

وأصـدق مثـال لذلـك شخصيّـة الرئيـس الأول للسنغـال «سنغـور»[4]، وهو ذلك الرجـل المنسلخ من هُويّتـه، يتحدث عن

---

(١) Nancy Kwang Johnson (2004) Senegalese “Into Frenchmen”? The French Technology ofNationalism in Senegal ,Nationalism and Ethnic Politics.

(٢) وهذه المناطق هي: داكار، روفيسك، سين لويس.

(٣) وخير مثال لذلك: حين توّج الرئيس السنغاليّ الأول سنغور حياته الفكرية- في نهاية المطاف- بما كان يحلم به طيلة مسيرته العلمية، وذلك عندما انتُخب ليصبح عضواً مدى الحياة في الأكاديمية الفرنسية، التي دخلها يوم ٢٩ مارس ١٩٨٤م، وانضم إلى عضوية لجنة القاموس الفرنسي، وهو أمرٌ غير مستغرب حين ننظر إلى الموضوع انطلاقاً من عطائه الفكري، والخدمات الجليلة التي قدّمها للغة والحضارة الفرنسيتَيْن. انظر: محمد سعيد باه، لوبولد سنغور.. صراع السياسة، الفكر والدّين وراء قناع الشّاعريّة. مقال منشور في مجلّة قراءات إفريقيّة.

(٤) ينتمي «لوبولد سيدار سنغور» إلى فئة قليلة من الشّخصيات الإفريقية التي برزت إلى الساحة، وحظيت بشهرة عالميّة مدوية خلال القرن الميلادي المنصرم، وهو أول رئيس لدولة السنغال، تولّى الحكم من سنة ١٩٦٠م-١٩٨٠م. وتوفي سنغور في ٢٠ كانون الأول / ديسمبر سنة ٢٠٠١م ببلدة فنسون الفرنسية، والتي كان يقيم بها منذ أن غادر كرسي الرئاسة السنغالية، ثم نُقل جثمانه إلى السنغال، حيث دُفن بمقبرة «بلّير» في دكار. أخذاً عن مقالة: لوبولد سنغور ... صراع السياسة، الفكر والدّين وراء قناع الشّاعريّة، للكاتب د. محمد سعيد باه، بموقع مجلّة قراءات إفريقيّة.

الأفريقانية؛ ويتصرّف ويفكّر بعقلٍ فرنسيّ!

وقـد عمل من خـلال الجمعيّة الوطنيّـة الفرنسية على عدم إنهـاء استعمار إفريقيـا، وكان يدعم التشريعـات التي تمنح حقّ المواطَنــة الفرنسيّة للأفارقة، وشجّع فرنســا على القيام بتنفيذ تغييـرات اجتماعيّة واقتصاديّة سريعة في مستعمراتها، حتى إنه وصف عمـل فرنسا في القارة بـ«العمل الحضـاريّ»[1]، ولا يخفى على المتابع لأحداث القارة اقتفاء جلّ رؤسائها خطوات سابقِهم «سنغور» في التبعيّة والموالاة!

وليـس هذا فقـط؛ بـل إنّ عـدداً مـن السَّنَاغلـة والأفارقة أُرسلوا إلى فرنسا نوّاباً في المجلس البرلمانيّ الفرنسي، وأُعطوا حـقّ التصويـت في الانتخابـات الفرنسيـة، والقتال فـي الجيش الفرنسي، وتمّ ذلك كله بموجب القانون المدنيّ الفرنسي.

وباختصـار: كانـوا مواطنيـن فرنسيّيـن خـارج الحـدود الإقليمية لفرنسا!

وكان لهـذه الاستراتيجيـة تأثيـرٌ قـويٌّ فـي سلـخ القوميـة والشعور بالوطنية من الأفارقة الذين أصبحوا بالقانون مواطنين فرنسيّيـن! وخيـرُ دليـل علـى ذلك مـا قالتـه ابنة أخـت سنغور «ماري لويـس غي»- وهي تصف كيف كان حـال أن تكون مواطناً فرنسيّـاً-: «خلال فترة الاستعمار... عشت كامرأةٍ إفريقية، وفي نفس الوقت كان قرار فرنسا في جعل المناطق الأربع في السنغال كأقاليـم فرنسية فـي الخارج؛ جعل سـكان هذه المناطـق شعباً متميّـزاً.. حيث مُنحـوا وضعاً خاصّاً، وكانـوا مواطنين فرنسيّين لهـم حقوقهـم الخاصّـة... وبالتالي لـم يكن هناك شـيءٌ يفرّق ويميّز بينـي وبين امرأةٍ فرنسيـةٍ شابّة، باستثنـاء بعض التمييز العنصـري؛ إلا أنّ ذلـك لم يكن شيئاً»[2]- مقارنـةً بما تتمتع بها من حقّ الجنسية الفرنسية-.

وهذا النّـوع من التصريح هـو عين الحرب علـى المواطَنة الإفريقيـة، وتُعـدّ الحـرب علـى المواطَنـة الإفريقيـة مـن قِبَل الغربيّيـن الجُدُد من الأفارقة من أكبر الجرائم المرتكبة في حقّ الشعب الإفريقي.

وبمثل هذه السّوابق التاريخيّة تجذّرت الازدواجيّة في الهُوِيّة

ارتأى المُستعمِر أن يفرض على المدارس الإفريقية لغته وثقافته لتحدث هوّة عميقة بين الشعب الإفريقي ولغته الأمّ، الأمر الذي جعل المثقّف الإفريقي يتّحد مع اللغة الغربيّة

عنـد الإفريقي، فلم يعـد للمواطَنة الإفريقية ذِكـرٌ ولا أثرٌ؛ إلّا ما تبقّى مـن صيحاتها عنـد الغيورين من أبناء القـارة، ومع ذلك؛ يُلاحظ عمق التشكّل المريب في الانتماء لدى بعضهم، والتأسف علـى الوضـع الإفريقي، حين يتعلّق الأمر بتطويـر بلده، سواء في السياسـة أو في الاقتصاد، أو في التخلّق اجتماعيّاً بالصورة التي ترضاها الأعراف الإفريقية.

مظاهر المواطَنة الفارغة[3]:

إنّ دول العالـم قديمـاً وحديثـاً، لـم تخـلُ دساتيرهـا مـن تنظيـم حقـوق المواطَنة، ووضع قيود وتطبيقـات معيّنة لها؛ من شأنهـا حفـظ كيـان الدولـة وحريـة المواطنين؛ ولكـن مع ذلك فـإنّ المواطَنة في إفريقيا لا تزال في خـواءٍ إلّا ما ندَر، ومظاهر المواطَنـة في المجتمعات الإفريقية تدلّ علـى فراغها في نفوس الشعـب الإفريقـي، ومن الطبيعيّ أن يكـون سبب ذلك الانخراط الواسـع للمُستعمِـر في سبيل تسييـر الـدّول الإفريقية من جميع الجوانب.

- تأثر دسـاتير الدّول الإفريقية بالقانون الفرنسي أو الإنجليزيّ:

من الملاحظ أنّ دساتير الدّول الإفريقية عقب الاستقلال أتت متأثّرةً بالقانون الوضعيّ الفرنسـي أو الإنجليزيّ، وبالإمكان القول

(١) باسم رزق مـرزوق، الهوية الإفريقية في الفكر السياسيّ الإفريقي، المكتب العربيّ للمعارف ٢٠١٥م، ص٣٢١.

(٢) Marie Louis PotinGueye (1995). Person-al interview (December 21 مقابلة خاصّة- .

(٣) المظاهر كثيرةٌ، وتشمل جوانب الحياة المختلفة؛ في الحقوق، والمشاركة، والسلوك العام، وفي العادات والتقاليد التي طغت عليها المظاهر الغربية.

بـأنّ كتابتها تمّـت على أيدي الاحتـلال وبلغته، وعليه تكـون الدّول الإفريقية استمـدّت قوانينها من المنهج اللاتينيّ الغربيّ، ولم تكن المواطَنة غائبةً في النسق العام لحياة الفرد الإفريقي؛ ولكنّها خلت مـن مضامينها فأنتجت مواطَنة فارغةً، والتي برز معظم مظاهرها في نصوص الدّساتير، وفي التطبيقات العمليّة لها.

- اعتبار اللغة الفرنسية أو الإنجليزية لغةً رسمية:

ومـن الأمثلـة علـى ذلـك؛ النّصـ قانوناً فـي أكثـر الدّول الإفريقيـة على اعتبار اللغـة الفرنسيّة أو الإنجليزيّـة لغةً رسميّة للوطن[١].

- كتابة النشيد الوطنيّ الإفريقي بلغات أجنبيّة:

كمـا يُضاف إلى ذلـك: أنّ النشيد الوطنيّ، في دولٍ إفريقيّة كثيـرة، مكتـوبٌ بلغات أجنبيّـة، ويحمل في طيّـات كلماته وجمله معانيَ لا تُقوّي روح المواطَنة[٢]؛ بل تهدمها وتفرّغها من النفوس؛ لأنّـه لا شـكّ بوجـود الترابـط بيـن مظاهـر المواطَنـة الفارغة والنصوص التي ترعاها نقداً وتوفيقاً.

- تناقض السّاسة في التعبير عن المواطَنة:

وبالنظر الحصيف إلى الإدارة السياسيّة في إفريقيا؛ يدرك الملاحـظ مـدى انغماس السّاسـة في التعبير عـن المواطَنة في خطاباتهـم؛ فـإذا بها فارغة مـن نفوسهـم؛ لأنّ أعمالهم لا تدلّ على الوطنيّـة، فسنغور- الرئيـس السنغالـيّ الأول[٣]- مثلاً، لم يكـن إلا مجرد حاكم فرنسيٍّ في إهاب أسمـر؛ يمثّل دولةَ فرنسا وحضارتهـا ورسالتهاً الثقافية لدى الأُمّـة السنغالية؛ تحت لافتة «الاستقلال» المضلِّلة.

ومـن المواقـف التـي تُسجّل- حـول المواطَنـة الفارغة-، وتشـكّك فـي أصالـة ولاء سنغور للأمّـة السنغالية، ومـن ورائها إفريقيـا الحضارة والتاريخ، ذلـك التصريح الخطير الذي صدر عنـه يوم استقبل جـورج بومبيـدو- صديقه الحميـم وزميله في مقاعـد الدراسـة-، والـذي أصبح فيما بعـد رئيسـاً للجمهورية الفرنسية، وذلك لمّـا زار السنغال سنة ١٩٧٠م، في إطار السعي لإبـرام الاتفاقيـة العسكريـة (المشؤومـة) بيـن فرنسـا وبعض الـدول الإفريقية، يومها فاجـأ سنغور أصحـاب الانتماء الأصيل إلى الوطـن من السنغاليّين عندما قال مفاخـراً- طبقاً لما روته مجلة الإكسبريس الفرنسية عنه-: «اليوم تستقبل فرنسا السوداءُ فرنسا البيضاءَ»![٤]

وعلـى الجانب الآخر؛ نجد في بعض مَن لا يُتهم بأنهم كانوا من صفّ خصومـه السياسيّين أو الفكريّين مَـن يُقدّم شواهد لا تقلّ أهميةً وخطورةً عن ذلك التصريح، تؤكّد كلها أنّ ولاء سنغور للجمهوريـة التـي كان يرأسها، والأمّـة التي كان يدّعـي الانتماء إليهـا، كان ولاءً صوريّـاً أو مغشوشـاً؛ لأنـه كان يفتقـد المرتكز الحضاري والعمـق الاجتماعي والانتماء التاريخي الأصيل؛ مع ما يقتضيـه ذلك كله- مجتمعاً- من الارتباط والإيمان والقدرة على التعبير عن ذلك الارتباط والإيمان، وخصوصاً بالنسبة لمن كان في مثل وضع سنغور السياسي والثقافي[٥].

وهكذا، بقيـت المواطَنة الفارغة متجذّرةً فـي إفريقيا، سواء من حيث التصـوّر، أو من حيث التطبيق العمليّ لشؤون الحياة، ولم يأت ذلـك عن فراغ؛ بل كانت خطـةً استراتيجيّـةً محكمة، وضعها الاحتلال الغربيّ، وسعى من أجل تنفيذها بالطريقة التي ارتضاها.

جدليّة التشكّل في هويّة الإنسان الإفريقي: قراءة في الأبعاد:

ونظـراً للآثار السلبيّة التي خلّفهـا الاحتلال الغربيّ على كلّ الأصعدة في إفريقيا؛ يُلاحظ الجدل الواسع في أوساط المثقّفين الأفارقة حـول التشكُّل الكاذب لهُويّة الإنسـان الإفريقي، وقابليّته للانصهار الكليّ فـي الثقافات الأخرى بغضّ النظر عن طبيعتها، وقد ضيّع هذا التذبذب المريب أصالة القيم الأفريقانية؛ من حيث التطوير الذاتيّ والمساهمة الفعّالة في بناء التكامل الاجتماعيّ.

---

(١) فمثلاً: ينصّ المشرّع السنغاليّ في الدّستور على أنّ: «اللغة الرسميّة لجمهورية السنغال هي الفرنسية»، وعدّ المشرّع اللغات المحليّة ثانوية بعد الفرنسية! وهذه الحقيقة تنطبق على كثيرٍ من الدّول الإفريقية.

(٢) حيث نجد في النشيد الوطنيّ السنغاليّ مؤشراً دالاً على هذا التوجّه التهريجي، فضلاً عن رغبة جامحة في الابتعاد عن مكونات الأمّة الحقيقية، «شدُّوا جميعاً أوتار الكورا (آلة موسيقية لدى شعب المانديغ)، اضربوا البلافونات (آلة موسيقية إفريقية)، فالأسد الأحمر قد زأر»، انظر: الترجمة الكاملة لهذا النشيد في ملاحق: بحث "السياسة السنغالية: مواقف ومحطات".

(٣) ومثله بورقيبة، وغيره من النخب التي صنعها الغرب ومكّن لها.

(٤) . أ. محمد سعيد باه، لوبولد سنغور.. صراع السياسة، الفكر والدّين وراء قناع الشّاعريّة. مقال منشور في مجلّة قراءات إفريقيّة.

(٥) أ. محمد سعيد باه، لوبولد سنغور.. صراع السياسة، الفكر والدّين وراء قناع الشّاعريّة، مرجع سابق.

إنّ الشراكة في الوطن قوّةٌ للوحدة، وعاملٌ أساسيّ في محاربة الاضطهادات الخارجيّة، وهذا ما فهمته دول المُستعمِر، فعملوا على زعزعة هذه الشراكة الوطنيّة لدى الأفارقة ثقافيّاً واجتماعيّاً، وكان ذلك مُهدّداً لتماسك المواطَنة الإفريقية.

ويشهد التّاريخ المعاصر «الاستيعاب المفرط للهُويّة الغربيّة» لدى كثيرٍ من الأفارقة، فأصبحت التّكلفة باهظة؛ حيث فقدوا ثقافاتهم التقليدية، وجعلوا اللّغات الأجنبية- كالفرنسية والإنجليزية والبرتغالية- لغات الإدارة في بلدانهم، وبهذه الطريقة بقيت الهُويّة الوطنيّة للأفارقة مساويةً لقوميّتهم اللّغوية، فأصبحوا بذلك فرنسيّين وإنجليزيّين ثقافةً وحضارةً[1].

وبالإمكان القول بأنّ هذه الغزوة الفكريّة التي اتخذت القانون أداةً لها تمّ استخدامها لاختراق الشّعب الإفريقي، الأمر الذي سبّب ضعفاً في وطنيّتهم، وحدَّ من تماسكها عندهم.

وبالقراءة البسيطة لبعض الأبعاد الأكثر تأثيراً في حياة الفرد؛ يظهر لنا المستوى الضعيف للمواطَنة الإفريقية:

في البعدَيْن الثقافي والاجتماعي:

يُعدّ كلٌّ من البعدَيْن الثقافيّ والاجتماعيّ الأكثر تأثيراً وتعميقاً لقضيّة المواطَنة.

وفي إفريقيا؛ يدرك الملاحظ كيف استنسخ الأفارقة ثقافة الغرب في حياتهم الاجتماعيّة تطبيقاً وتأسّياً، وشواهد هذا التأثر العميق في الدول الإفريقية الفرنكوفونية كثيرة، ويعود ذلك إلى الأسباب الرئيسة التي جعلت الدّول الغربية تغزو إفريقيا بدعوى الاستعمار، فالسّبب الأول تعلّق بسعيهم الحثيث لاكتشاف إفريقيا المجهول، والثاني يعود إلى تنصير المجتمع الإفريقي ومحاربة المدّ الإسلامي، والثالث يرجع إلى نيّتهم في نهب ثروات إفريقيا وخيراتها والاعتماد عليها في تطوير دولهم[2].

ونجاح هذه الأسباب الثلاثة بالاحتلال واقعيّاً؛ أدّى بهم إلى غزو الأفارقة ثقافيّاً واجتماعيّاً؛ فاستغلّوا الإنسان الإفريقي في نهب الخيرات، وأصبح جلّ العقول الإفريقية التي تلقّت التّدريب العالي من الدّول الأوروبيّة المحتلّة على أيديها، تستخدمها في صالحها، وأغرتها بالجنسيّة، فانقلبت الهُويّات من الأفريقانيّة إلى الغربيّة، وأصبح السلوك الاجتماعيّ والثقافيّ يمثّل الثقافة الغربية من أوسع أبوابها في المجتمع الإفريقي.

في البعدَيْن السياسي والإداري:

لم يكن البعدان الثقافيّ والاجتماعيّ كافيَيْن لدى المُستعمِر في تشكيل تلك المواطَنة المزدوجة عند الإفريقي، بل تجاوز الأمر إلى ترجمة هذَيْن البعدَيْن في الحركة السياسية والإدارية، وكانت بدايتها نابعةً من الانبهار بالثقافة الغربية، وصياغة النهج التربويّ والتعليميّ على نمط فكر المُستعمِر، حيث توجد في إفريقيا مناهج تربويّة استُمدّتْ من ينابيع فرنسا أو إنجلترا أو حتى البرتغال.

أضف إلى ذلك الأنظمة السّياسية التي خلّفها الاحتلال، والتي لا تزال متّبعَةً في إفريقيا، ما يجعل المواطن الإفريقي يتساءل عن حقيقة الاستقلال ومدى واقعيّته، وكلُّ ذلك ناتجٌ عن عدم وجود التّوافق بين الواقع العمليّ والواجب الوطنيّ.

هل من عودة إلى خطوات عمليّة لإرساء المواطَنة الحقّة على أساس الهويّة الإفريقية؟:

لمبدأ المواطَنة دَوْرٌ في تعزيز الوحدة الوطنيّة، والقدرة على نشر التّعايش السلمي بين الشعوب، وتقليل الخلافات فيما بينها[3]، ولا يتحقق ذلك كلّه إلا بأن تهتم الشعوب بالعلم والمعرفة، وضرورة حماية هُويّتهم، التي من خلالها يمكن المحافظة على قيمهم الإنسانية الأصيلة.

ومع ذلك؛ فقد تعددت صور التّباكي على الواقع المؤلم لإفريقيا، وكثُر اللوم على المخلّفات الاستعمارية، ويتعاظم القلق يوماً بعد يوم من ضياع الهُويّة، واندثار المواطَنة الإفريقية من أصالتها، بعدَ أن كانت هي الأساس في تفريغ نفوس الأفارقة من الآلام، وبعث الآمال نحو التطور والازدهار، والسعي بإخلاص في خدمة هذا الشعب الإفريقي العريق.

ولا يتأتى تحقيق ذلك إلّا بإعادة النّظر في تشكُّل الهُويّة، ونبذ مظاهر المواطَنة الفارغة، والعودة إلى المواطَنة الإفريقية الحقّة، عن طريق برامج هادفة في التعليم والتربية، وتحقيق النموّ في الاقتصاد باستشعار المسؤوليّة الوطنيّة، والتوقّف عن الانحراف عن جادّة الطريق، ومحاربة الفساد والمفسدين- الذين يركعون لأسيادهم من الغرب- بالفكر والعمل ■

---

(١) عبد الرحمن كان، مبدأ المواطَنة في الفقه الإسلاميّ بالتّطبيق على دستور جمهوريّة السنغال، رسالة ماجستير غير منشورة، ص٩٠.

(٢) Stoller, Paul. Embodying colonial memories: spirit possession, power, and the Hauka in West Africa. Routledge, 2014.

(٣) عبدالرحمن كان، مبدأ المواطَنة في الفقه الإسلاميّ بالتّطبيق على دستور جمهوريّة السنغال، مرجع سابق، ص١٠٥.